أضواء على بلاد الشمس المشرقة

■ حينما تهاوى المنجل والمطرقة في أرجاء ما كان يسمى الاتحاد السوفيتي ارتفع الهلال رمز الإسلام والمسلمين في البلاد الإسلامية التي استعمرتها روسيا القيصرية »في القرن التاسع عشر الميلادي« تم دخلت كنتيجة لذلك الاستعمار ضمن الاتحاد السوفيتي عام1917م.
وحينما أعلنت جمهورية أذربيجان استقلالها عن الاتحاد السوفيتي في أغسطس1991 م وارتفع ندا »الله أكبر« من مآذن »باكو« عاصمة أذربيجان ..رددت مآذن بلاد الشمس المشرقة »تركمنستان واوزبكستان وقازاقستان وتاجيكستان وقرغيزيا« نفس النداء الخالد »الله أكبر« وأعلنت شروق فجر الاستقلال في بلاد الشمس المشرقة.. فكان ذلك بداية لنهاية الاتحاد السوفيتي..

زيد محمد حسين الفرح

●.. فكتبت صحيفة »ديلي كورانتي السوفيتية الناطقة بلسان المجلس الليبرالي لمدينة موسكو »مقالاً عما حدث ويحدث في جمهوريات آسيا الوسطى – تلك– وقالت »أن عامل الإسلام مهم للغاية وسوف نتحسسه قريباً« بينما نشرت صحيفة »اللموند الباريسية« تحقيقاً صحفياً عن تلك الجمهوريات .. قالت فيه :»إن الإسلام هو الطاقة الأصلية للقدرة السياسية في هذه المناطق ، فقد استأنفت المساجد نشاطها، وتنتظم صفوف دراسة القرآن واللغة العربية في المساجد بصورة مكثفة، أن جماهير هذه الجمهوريات تبحث عن معالم هويتها المستقلة في الدين والعادات والتقاليد الإسلامية واللغة والكتابة وتتعامل مع تراثها الإسلامي على أنه ينبوع تاريخها الحقيقي.

– ولكن لماذا اللغة والكتابة العربية وما هي علاقة العرب بتلك البلاد.. وبلمحة عن ذكريات تاريخ نبدأ..

– كانت البلاد التي تشمل الجمهوريات الإسلامية الخمس الواقعة في آسيا الوسطى »شرق بحر قزوين« وهي تركمنستان وأوزبكستان وكازخمستان وتاجيكستان وقرقيزيا– كانت تلك البلاد ولاية واحدة في فجر الإسلام وعصر الدولة الإسلامية وخلفائها العرب »الراشدين والأمويين والعباسيين« وكان لتلك الولاية الشاسعة اسم جامع هو ولاية بلاد خراسان واسم »خرسان« بلغة تلك البلاد معناه »الشمس المشرقة« وهي ولاية موحدة في فجر الإسلام وعلى امتداد نحو ثلاثة قرون وهو الوضع الطبيعي.

واستمرت تلك البلاد دولة واحدة في ظل الدول الإسلامية التي تعاقبت هناك والتي كان أهمها الدولة السامانية التي أسسها نصر بن أحمد بن سامان وكان سلطانها يشكل بلاد الشمس المشرقة وقد استمرت من عام٢٦١ هـ٣٩٥ هـ ثم دولة بني قطلميش الإسلامية حتى القرن الثامن الهجري ثم المملكة الخوارزمية العظمى »في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي« ثم دولة تيمور لتلك السمر قندي التي كانت عاصمتها مدينة سمر قند في أوزبكستان أجمل مدن آسيا وكان سلطانها يمتد في أرجاء بلاد الشمس المشرقة وإلى آفاق واسعة في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر.. وقد استمرت وحدة بلاد الشمس المشرقة »آسيا الوسطى« حيث جاء في »القاموس السياسي« أن أهلها الأوزبك »كانوا العنصر الحكم في آسيا الوسطى حتى التغلغل الروسي في القرن التاسع عشر الميلادي« ..

– ولا بد من الإشارة إلى أن العرب الذين استقروا في بلاد الشمس المشرقة في فجر الإسلام وجدوا من حب أهل تلك البلاد ما أنساهم موطنهم العربي الأول فأصبحوا من أهل تلك البلاد وامتزج الدم العربي بدم أهل تلك البلاد وتجانست كذلك كان لأهل تلك البلاد من الأوزبك وغيرهم إسهام فعال في الحضارة العربية الإسلامية وأنجبت تلك البلاد عشرات العلماء أمثال البخاري وابن سيناء والخوارزمي ومسلم والفارابي وغيرهم.. وكان لتلك البلاد الإسلامية دورها المرموق إلى أن إحتلتها روسيا القصيرية.

كانت مقاومة البلاد الإسلامية في آسيا الوسطى »بلاد الشمس المشرقة واذربيجان والقفقاس والقرم« ضد الاحتلال القصري الروسي ثم ضد البلاشفة الماركسيين تنقطع ولكنها لا تتوقف.. تماماً كما في مقاومة البلاد العربية الإسلامية للاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي آنذاك.. أن استشهد ونفي وهروب أكثر من نصف مليون من المثقفين المسلمين في تلك البلاد خلال الثلاثينات هو شاهد لا تخطىء دلالته على مدى المقاومة والنضال ضد الجيش الأحمر وأباطره الكرملين آنذاك .. فاذا أضفنا إلى ذلك »أن واحداً من كل ثلاثة مزارعين مسلمين في مناطق الكازاك فقدوا حياتهم أثناء مقاومتهم لنظام المزارع الجماعية« »عالم المسلمين السوفيت – مجلة العربي العدد ٢٥٤ يناير١٩٨٠م« وأن مثل ذلك حدث في المناطق الأخرى.. فإن الصورة تزداد وضوحاً..

فإذا ما انتقلنا إلى الأربعينات يحدثنا كتاب »الأمبراطورية المتفجرة« عن بداية أهم معالم النضال قائلاً »بينما كان ستالين يواصل قمعه للمسلمين حتى ألغى استخدام الحروف العربية في بلادهم »آسيا الوسطى« تصاعد الحس القومي بينهم وشكلوا فرقاً للمقاومة في أواسط آسيا.. وفي تلك الظروف اندلعت الحرب العالمية الثانية« .

كما حدث في البلاد العربية التي كانت تحتلها بريطانيا وفرنسا حيث تعاطف طلائع العرب مع ألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا على أمل التحرر من الاستعمار.. وارتفع صوت الشاعر اليمني القاضي علي الحجري يقول تعبيراً عن ذلك :

جيش برلين في البسيطة أمسى
يكنس الغرب بالفيالق كنسا
يا بريطانيا أتاك أتاك
ضيغم لا يخاف جناً وإنسا

وتهيأ الضباط الوطنيون في مصر بزعامة الفريق عزيز المصري لمناصرة ألمانيا حين تزحف لمواجهة الجيش البريطاني في مصر وكذلك في فلسطين بزعامة أمين الحسيني وفي سوريا والعراق وغيرها.. أقول كما حدث في البلاد العربية حدث في البلاد الإسلامية »المحتلة« بالاتحاد السوفيتي تعاطف واسع مع ألمانيا.. وكان للدعاية الألمانية بمنح البلاد الإسلامية التي تحتلها روسيا الاستقلال تأثيرها الواسع.. وبالذات في جمهورية القرم وبلاد القفقاس »داغستان – الشاشان والانغوش– اوستين– الخ« فلما دخل الجيش الألماني تلك البلاد »عام١٩٤١ م تحول التعاطف إلى تعاون مع الألمان الذين أعلنوا استقلال القفقاس والقرم »وقاموا بتسليم السلطة إلى الزعماء المسلمين في القرم، وأعلنوا دولة مستقلة في كارشاي تولى قيادتها رئيس مسلم اسمه القاضي إبراهيموف ودولة أخرى في القفقاس« أما بقية البلاد الإسلامية يصلها الألمان ووقفت في الصف السوفيتي وتم نقل مصانع الذخيرة والإنتاج في روسيا إليها، فلما آل الأمر إلى انهزام المانيا على يد تحالف روسيا وأميركا وأوروبا في عام١٩٤٤ م اتخذت الدولة السوفيتية بزعامة ستالين أعنف وأقسى الإجراءات ضد المسلمين في القرم والقفقاس حيث قام الجيش الأحمر بقتل أعداد كبيرة من القرميين والقفقاس بتهمة التعاون والتعاطف مع ألمانيا.. وتم نفي شعب القرم المسلم– كل الشعب– إلى مجاهل سيبيريا وغيرها فضاع الشعب وضاعت القرم إلى الأبد حيث تم ضمها إلى أوكرانيا.. كما تم إلغاء جمهورية الشاشان والانغوش القفقاسية ونفي شعبها إلى كازاخستان ولكن عادوا إلى بلادهم عام١٩٥٧ م وكذلك تم نفي بعض الشعوب الأخرى.. وأطبق على الاتحاد السوفيتي صمت رهيب إلى أن جاء جورباتشوف .

لقد تولى جورباتشوف رئاسة الاتحاد السوفيتي بعد هلاك ستالين بـ ٣٣سنة فقط فكشف جورباتشوف حقيقة الأوضاع الاقتصادية في البلاد وأتاح لشعوب الاتحاد السوفيتي أن تتكلم الأول مرة بعد صمت فرضته

الحكومات الماركسية الرهيبة طيلة العقود الماضية.. فتكشفت حقائق كثيرة كانت شبه مجهولة.. واكتشف العالم أن في تلك البلاد سبعين مليون مسلم يفرضون وجودهم ويعلنون في صراحة ووضوح تمسكهم الشديد بدينهم الإسلامي الحنيف رغم كل ما تعرضوا له من القمع والقتل والإرهاب في العهود الماركسية السابقة.. وعادت نداءات »الله أكبر« تتردد مدوية من فوق مآذن المدن والبلاد الإسلامية وتعلن جميع السمات أن الإيمان له الكلمة العليا في مسيرة التاريخ.. وكذلك عادت أجراس الكنائس تدق فإذا بنا والعالم أجمع نكتشف أن تلك الشعوب التي كنا نظنها ملحدة شيوعية إنما كانت مغلوبة على أمرها وأن الإيمان لم يخب أو يعف يوماً ولكنه اختفى وتوارى داخل القلوب بعد مجازر ستالين التي راح ضحيتها ما لا يقل عن خمسة ملايين من المسلمين والمسيحيين الذين تم اتهامهم بمعارضة الشيوعية ومناهضة النظام أو المطالبة بالحرية وفي مقدمتها حرية الكلمة.. وقد أظهر جورباتشوف قدراً كبيراً من التسامح الديني وسمح للمسلمين بافتتاح واستخدام المساجد المتبقية وبإقامة مساجد جديدة وأوقف الدعاية والسياسة الحكومية المناهضة للدين..

فمكنت الشعوب من أن ترفع رأسها وتنظر إلى السماء فتزداد إيماناً... وأن تلتفت إلى تاريخها وإلى ما عانته في الفترة السابقة فتزداد إصراراً على أن تنتزع حقوقها كاملة.

وقد نشرت بعض الصحف مقابلات مع شخصيات إسلامية كبيرة في ما كان يسمى الاتحاد السوفيتي من تلك الشخصيات »باشازادا رئيس المجلس الإسلامي في القوقاز« الذي قال »لم يكن لحرية العقيدة في الفترة السابقة وجود فقد دمرت النظم التي سبقت جورباتشوف كل قيم المجتمع« وقالت الصحيفة في معرض نشرها للمقابلة أنه »بعد فترة قصيرة من استيلاء الشيوعيين على السلطة عام ١٩١٧م أغلقت السلطات ٢٦ ألف مسجد و ٢٤ألف مدرسة دينية تدرس الإسلام والعربية في طول البلاد وعرضها.. وتعرض كل العلماء والفقهاء والمعلمين الإسلاميين إما للتصفية الجسدية أو للاعتقال والنفي والتشريد.. بل أن ستالين قام بترحيل ملايين المسلمين الذين اتهمهم بعدم الولاء إلى منافي سيبيريا وقد ذكر الشيخ محمد صادق رئيس الدائرة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى عام١٩٩٠ م في مقابلة صحفية »ما زلت أناشد المؤسسات الإسلامية بالاهتمام بتعريب هذه الشعوب المسلمة لأن نشر اللغة العربية هو من صميم الدعوة الإسلامية إذ يجب أن تتوازن الجهود المبذولة لأجل انبعاث الإسلام ونشر اللغة العربية حتى لا يحتاج المسلم إلى ترجمات معاني القرآن الكريم، فالواقع الذي عاشه المسلمون هنا– في الفترة السابقة– يؤكد أن الابتعاد عن لغة القرآن يؤدي إلى عرقلة الجهود المبذولة في مجال الإسلام والثقافة الإسلامية« وعن المناطق والبلاد الإسلامية في الاتحاد السوفيتي قال محمد صادق »توجد ست جمهوريات وبعض الجمهوريات الصغيرة الأتونومية والأقاليم، فالمناطق الإسلامية بالاتحاد السوفيتي هي جمهوريات أوزبكستان وكازاخستان وتاجيكستان وتركمنستان وقرقيزية واذربيجان والجمهوريات والمناطق هي داغستان باشكيريا – تتاريا– شاشان والانغوش أوستين »الشمالية في روسيا والجنوبية في جورجيا« بلكاريا وأدينيا – قرتشاي جوفاش– موردوف– أدمورت– ماري– أونبرج– اجاريا« وتبلغ المساحة الكلية للمناطق الإسلامية في الاتحاد السوفيتي ٤ ملايين و ٦٨٤ألفاً و ٩٨٠كيلو متراً مربعاً وهناك مساحة مماثلة تقريباً شرقي سيبيريا..

ومن ناحية ثانية فإن إرادة الاستقلال والنضال الذي تعمد بدماء الشهداء في أذربيجان وكازاخستان وغيرها »عام٩١–٨٩ م« تتوج بإعلان استقلال اذربيجان في أغسطس٩١ م ثم تتابعت إعلانات الاستقلال وفي٢١ ديسمبر١٩٩١ م اجتمع مدينة » الماراتا« عاصمة جمهورية كازاخستان الإسلامية رؤساء الجمهوريات الإسلامية ورؤساء روسيا وبقية الجمهوريات السلافية وتم إعلان نهاية الاتحاد السوفيتي وعادت الشمس تشرق من جديد في بلاد الشمس المشرقة..

والله الموفق.